﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥﴾ [النمل: 45]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قـصّـةُ ملـكـةِ سـبـأ وثـمـود بـيـنَ الـتـوفـيـق والخِذلان

ممّا يظهر في بيان وجه التناسب بين ذكرِ قصَّة صالح ﷺ مع ثمود، بعد قصَّة سليمان ﷺ وملكة سبأ هو: أنَّ ملكةَ سبأ؛ مع ما كانت عليه من كفرٍ موروث، حين رأتِ الصّرح الممرَّد، عرفت صدقَ سليمان ﷺ، وأنَّه على صلةٍ بالسماء، فآمنتْ بما آمن به هو، واتّبعتْ سبيله، وأنَّ ثمود قد طلع عليهم نبيّهم بآيةٍ من آيات الله، هي الناقة، فلم يروا فيها ما رأتْ ملكة سبأ في الصَّرح الممرَّد، بل كذَّبوا صالحًا، ورمَوه بالسّفَه. فهذا موقف، وذاك موقف؛ وكلا الموقفين بينَ يدي آيةٍ من آيات الله، فيكون في تلك الآية عبرةٌ وعظةٌ لقوم، وضلالٌ ومهلكةٌ لآخرينَ[1].

ولعل هذا هو السرُّ أيضًا في ذكر قوم صالح، دونَ قوم هود، إذ لم يكن مع هودٍ ﷺ آيةٌ كهذه الآية التي جاء بها صالحٌ ﷺ.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: (رسل) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ، يَدُلُّ عَلَى الانْبِعاثِ والامْتِدادِ. فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا. وشَعْرٌ رَسْلٌ، إذا كانَ مُسْتَرْسِلًا[2]. والإرْسالُ يُقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة، والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتّسخير، كإرسال الرّيح، والمطر، وقد يكون ببعثِ مَن له اختيارٌ، نحوُ إرْسالِ الرّسل، وقد يكون ذلك بالتَّخلية، وتركِ المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 250.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).

ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ [مريم: 83][1]. والمقصودُ بالإرسالِ في الآية: البعثُ والتَّوْجيهُ، وبهِ فُسِّرَ إرْسالُ اللّهِ ﷻ أَنْبياءَهُ عليهم السلام[2].

2) ﴿ثَمُودَ﴾: (ثَمْدٌ) أَصلٌ واحدٌ لا مادَّةَ له، وهو القليلُ من الشَّيءِ، فالثَّمدُ الماءُ القليلُ. وثَمَدَتْ فلانًا النِّساءُ إذا قطعْنَ ماءَهُ[3]. ومنه سُمّيت قبيلةُ ثمود؛ لقلَّة مائها. وثمودُ أُمَّةٌ من العَرَبِ البائدةِ العاربةِ، وهم أَنسابُ عادٍ. وثمودُ: اسمُ جَدٍّ تلكَ الأُمَّةِ، ولكنْ غَلَبَ على الأُمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ من الصَّرْفِ للعَلَميَّةِ والتَّأْنيثِ باعتبارِ الأُمَّةِ أو القَبيلَةِ[4].

3) ﴿فَرِيقَانِ﴾: (فرق) أصلٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شيئينِ[5]. الفَرْقُ: موضع المَفرِق من الرَّأس في الشَّعر. والفَرقُ: تفريقٌ بين شيئين فرقًا حتَّى يَفترِقا ويَتَفَرَّقا. وتَفارقَ القومُ وافتَرَقوا أي: فارقَ بعضُهم بعضًا[6]. والفِرْقُ والفِرْقةُ والفَريقُ: الطّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ المُتَفَرِّق. والفِرْقةُ: طائِفَةٌ مِنَ النّاسِ، والفَريقُ أَكثر مِنْهُ[7]. والمقصود بالفريقين في الآية: جماعتان من النّاسِ. والمُرادُ بهما: الفريقُ الذين استكبروا والفريقُ الّذين استُضْعِفوا وفيهم صالحٌ.

4) ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾: (خصم) أصلٌ يدلُّ على المُنازَعَة[8]. والخَصِمُ: المختصُّ بالخُصومة، قال تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزخرف: 58][9]. والذَّكَرُ والأُنثَى فيه سَواءٌ. والخُصومةُ: الاسم من التَّخاصُم والاختصام. يُقالُ: اختصمَ القوم وتخاصموا، وخاصمَ فلانٌ فلانًا، مُخاصَمَةً وخِصامًا. والخُصْمُ: طرفُ الرّاوية الذي بحيالِ العَزلاء في مؤخَّرها. والطَّرف الأعلى هو العصمُ، وهي: الأَخْصام وزوايا الوسائد والجواليق والفرش كلُّها أخصام، واحدها: خُصْمٌ[10]. ومنه قيل للمتنازعينِ: خَصْمانِ، لأخذِ كلِّ واحدٍ مِنْهُما في شِقٍّ من

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(6) الخليل، العين: (فرق).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (فرق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(9) الراغب، المفردات: (خصم).
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خصم).

الحِجاج والدَّعوى[1]. والمُراد بالاختصامِ في الآية: المُنازعةُ والمجادلةُ بالكلامِ. أي: يجادل بعضهم بعضًا ويحاجّه.

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ الكلام من لوازم النُّصح النّافع

يُخبر اللّهُ سبحانه عن جانبٍ مِن قصَّةِ صالحٍ ﷺ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ إلى قبيلةِ ثمود، أخاهم صالحًا ﷺ، فقال لهم ما قاله كلُّ نبيٍّ لقومه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تعالى وحدَه، ولا تشركوا معه آلهةً أخرى، فإذا قومُ صالحٍ فَريقانِ: مُؤمِنون وكافِرون، يختَصِمون في الدّينِ، وكلٌّ يقولُ بأنَّ الحقَّ معَه[2].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

### دلالة عطف هذه الآية على ما قبلَها:

في توالي القصَص دروسٌ وعِبَر

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ [النمل: 15] لاتّفاقهما في الغرض؛ فكلاهما مسوقٌ لتقرير أنَّ رسولنا محمدًا ﷺ يلقَّى القرآنَ من لدُنْ حكيم عليم، كما سبق في السّورة التأكيدُ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٖ ۝٦﴾ [النمل: 6]، فإنَّ هذه القصّةَ أيضًا من جملة القرآن الكريم، الذي لُقّيه ﷺ. وكذلك القصّتان متفقتانِ على غرضٍ آخر؛ وهو تسليةُ الرسول ﷺ بقصَصِ إخوته من الرُّسُل عليهم جميعا صلواتُ الله وسلامه، ليتأسَّى بهم في الثبات والصَّبر[3].

### دلالةُ التوكيد في قوله: (لقد):

معالجةُ مرض الشكّ أسلوبٌ قرآنيٌّ فريد

(اللام) واقعةٌ في جواب قسمٍ محذوف، والتقدير: (وباللّه لقد

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85، والسمرقندي، بحر العلوم: 2/ 585، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 214، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 335.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 277.

أرسلنا...)، وإنما أقسمَ على ذلك اعتناءً بشأنِ الحكم[1]، وأيضًا لإزالةِ الشكِّ من نفس المنكر لإرسال الله تعالى أنبياءَ إلى البشر. و(قد) حرفُ تحقيقٍ، ودخولُه على الماضي يزيدُ معناه تحقُّقًا، لما أفادَه من التأكيد؛ فالماضي دالٌّ على تحقُّق الوقوع قبل دخول (قد) عليه، ويزدادُ معناه دلالةً على تحقُّق هذا الوقوع بدخولها عليه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: 1]، وبذلك يكون قد تعاضد مؤكِّدانِ في قوله (لقد) هما لام القسم، وحرفُ التحقيق (قد) للاهتمام بشأن الحُكم الذي سيقت له الآية والاعتناءِ به وتأكيده. وفي ذلك إزالةٌ للشكِّ من نفس المنكر لإرسال الأنبياء، تعريضًا بأهل مكّةَ الَّذين فعلوا هذا، وواجهوا الرسولَ ﷺ بالإنكار والصُّدود.

### دلالة نون العظمة في قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾:

إنّ العظمة لله وللسّائرين في طريقه

يدلُّ التعبيرُ بنون العظمة في قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ على عظمةِ المُرسِل وجلاله وهو الله سبحانه، وتستلزم عظمةَ الرسول وهو هنا صالحٌ عليه السلام، وعظمةَ الرّسالة التي حملَها وهي رسالةُ التوحيد والإخلاص بالعبادة لله سبحانه، وعظمةَ الإرسال وأهميتَه في حياة الإنسان.

### سرُّ تخصيص ذكر ثمودَ دون عادٍ في قوله: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾:

سماعُ قصص السّابقين إنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين

يبدو للمتأمِّل أنَّ سياق الآيات في هذه السّورة كان معنيًّا بذكر الآياتِ الإلهية التي أيَّد الله بها رسلَه، ثمَّ بيانِ موقف المدعوّين منها من التوفيق والإيمان، أو الخِذلان والكفر، فلأجل هذا ذكرَ قصّةَ ملكةِ سبأ وكيف أنها أفادتْ من آية الصّرح الممرَّد من قوارير، ثمَّ ذكر قصَّة ثمودَ مع نبيهم صالحٍ عليه السلام، وقد أمدَّه الله تعالى بالناقة آيةً دالةً على صدقه، فكذبّوه فعقروها، فكان ما كان من أمر إهلاكِهم. ولم يذكُر قصةَ قوم عاد مع نبيِّهم هود عليه السلام – مع أنَّ العادة في القرآن الكريم جاريةٌ على ذكرها معها، كما ورد في العديد من السّور، ومنها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 204، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 404.

سوَرُ (الأعراف وهود والشعراء) - لأنه لم يكن مع هودٍ آيةٌ كهذه الآية التي جاء بها صالحٌ، فلعل هذا هو السرُّ في ذكر قوم صالحٍ، دون قوم هود[1]. ويضافُ إلى هذا القربُ المكانيُّ بين ديار ثمود ومُلك سليمان ﷺ، فهو من دواعي الإيثار بالذكر هنا أيضًا؛ "فديار ثمودَ كانت على تخوم مملكةِ سليمان، وكانت في طريق السّائر من سبأ إلى فلسطين، ألا ترى أنَّه أعقبَ ذكرَ ثمود بذكر قومِ لوط، وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياقُ هذه القصص مناسبًا لسياق السّائر من بلادِ اليمن إلى فلسطين"[2].

### دلالة تقديم ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعول:

قدَّم المجرور في قوله: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعول ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ للاهتمام والحصر، ولفت الانتباه والنظر إلى ثمودَ وما حلَّ بهم، فهم أهمُّ ذكرًا في هذا المقام؛ لأنَّ المجرور ﴿ثَمُودَ﴾ هو محلُّ العبرة، وأما المفعولُ فهو محلُّ التسلية، والتسلية غرضٌ تَبَعيٌّ[3]، ودلالةُ الحصر تفيدُ أنَّ كلَّ نبيٍّ من الأنبياء ﷺ كان يبعثُ إلى قومه خاصّةً إلّا نبيَّنا ﷺ فإنَّه مبعوثٌ للعالمين جميعًا، ومن أسباب تقديم المجرور على المفعول كذلك أنْ يعودَ الضمير في ﴿أَخَاهُمْ﴾ إليه، فلا يعودُ إلى متأخِّر لفظًا ورتبةً، وبذلك يتحقّقُ الاختصارُ بالإضمار[4].

مراعاةُ أحوال الناس غايةٌ لإرسال الرّسُل

### سرُّ التعبير بـ﴿ثَمُودَ﴾ و﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ دون (قوم صالح):

قد يقول قائلٌ: لمَ عبَّر مُطنبًا بـ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، ولم يقل مختصرًا: (إلى قوم صالح)، والظاهر أنه لم يعبِّر عنهم بـ(قوم صالح)، وعبَّر عنهم بـ﴿ثَمُودَ﴾ باعتبار القبيلة؛ لأنهم لكفرِهم الشّديد وعُمق عداوتهم لـ(صالح) ﷺ، كانوا ألصقَ بالنِّسبةِ إلى ثمود جدّهم

علاقة الرّسول بالناس تستوجبُ التصديق والإيمان

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 277.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 278.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 278، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - ب/ 200.

منهم بالنّسبة إلى صالح ﷺ. والظاهر أنه عبَّر بالأخوة في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ على معنى: أخاهم في النَّسب لكونه منهم، أي: من قبيلة ثمود، كما يقال: يا أخا العرب، ونحوه. وقدَّم ذكرَ كلمة ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿صَٰلِحًا﴾ تأنيسًا لقومه وتأليفًا لقلوبهم، أي: هو أخوهم ومنهم، فلن يدلَّهم إلّا على ما ينفعهم، لا ما يضرُّهم، وهذه المعاني لا تستفادُ فيما لو ذكر النصُّ الكريم مختصِرًا (قوم صالح) فحسب.

**دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾:**

الأخـوّةُ مدعـاةٌ إلـى تمحيضِ النُّصح وعـدمِ الارتياب

أضاف لفظ (الأخ) إلى ضميرهم؛ وهي إضافةُ تعريف، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يعرفون نسبَه بينهم، لما أبدَوْه تجاهَه من صدٍّ وإعراض وكأنّه غريبٌ عنهم يريد لهم الشرَّ، وهذه تسليةٌ للنبي ﷺ بإعراضِ قومه عنه مع أنَّه أخوهم. أوْ أنَّ الإضافة هنا إضافةُ تخصيص، غرضُها إبرازُ مظاهر الاهتمام بهم؛ إذ أرسلَ ربُّهم إليهم رسولًا خاصّا بهم يدلُّهم على الطَّريق المستقيم والنَّهج القويم في حياتهم الأولى، التي هي المعبَر للحياة الآخِرة. وأيًّامّا كان، فالنَّص بأنَّ صالحًا أخوهم الذي يعرفونَه يقتضي ألا يَنفروا منه، بل عليهم أنْ يُعينوه وأنْ يكونوا له عضُدًا في دعوته، فهو أخوهم وهم إخوته، ومقتضاه أنّه حريصٌ عليهم حرصَه على نفسه، وهم يسمعونَ له كما يسمعونَ لإخوتِهم، وذلك أدعى لاتّباعه، لا للارتيابِ فيه أوِ النّفورِ منه. وفي ذلك تعريضٌ بأهل مكة في معارضتهم للرَّسول ﷺ ومعاداته، مع أنَّه أخوهم الحريصُ عليهم.

**دلالةُ التصريح باسم النبيّ صالح في قوله: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾:**

تشريفُ الرّسول بالبيان تنويهٌ بالمرتبة والشّأن

السرُّ في التصريح باسم ﴿صَٰلِحًا﴾ ﷺ، أنّه من باب المدح والتشريف؛ ففي التصريح بأسماء الأنبياء في القرآن أثناءَ الحديث عنهم فضلًا عن قصدِ التعريف بها، بيانٌ لشرفِ أصحابها وفضلِهم في قيامهم بواجبهم تجاهَ الرِّسالة والدَّعوة. وعليه فهو عطفُ بيان

لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ مقصودٌ به المدحُ وليس الإيضاحَ فحسب؛ لكونه معروفًا لهم لا إبهامَ فيه بالنسبة إليهم وإنْ كان إيضاحًا بالنّسبة إلينا، كما هو في قوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] فقوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عطفُ بيان على جهة المدح، لا على جهة التوضيح"[1].

**دلالة ﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:**

التوحيد يستحقُّ البيانَ والتمجيد

﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هي - على الأرجح - مفسِّرة لما في الإرسال مِن معنى القول دون حروفه[2]، ولذلك لم يُحتج إلى ذكر فعل القول، كما صرّح به في آياتٍ مناظرة، كقوله تعالى في سورتي الأعراف وهود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: 73] [هود: 61]. وفائدةُ التفسير الجوابُ عمّا يعتمل في أذهان المخاطبينَ من وجود فعلِ الإرسال دون بيانِ حقيقة المرسَل به، فأجابَ عنه مفسِّرًا بأهمِّ ما اشتملت عليه الرسالة من عبادة الله تعالى وحدَه دون إشراكٍ وأوهام، وكذلك فإنَّ التصريح بفعلِ القول في الآيات المناظرة بما جعلَه معلومًا، أغنى كذلك عن التصريح به في آيةِ النمل، وقيل: إنَّ هنا حذفًا تقديره: (أرسلناه بتبليغ) ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[3].

**سرُّ التعبير بالعبودية في قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دون الطاعة:**

عبادةُ الرحمن نورٌ لقلبِ الإنسان

التعبيرُ بالعبادة في قوله سبحانه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هو في حقيقته أمرٌ بالتوحيد، كما قال عكرمة: جَميعُ ما ذُكر في القُرْآن من العِبادَة فالمُراد بِهِ التَّوْحيدُ[4]؛ أي: توحيدُ الله الذي يتحقّق بإفرادِه سبحانه بالعبادة دونَ اعتقاد النّفع والضرِّ من غيره، إذ لا يكفي مجرّد

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 681.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 204.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 405.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 597.

الاعتراف بأنّه الخالق، دون الاعترافِ بأنه وحدَه الأحقُّ بأنْ يُعبد وأنّه النافعُ والضارّ دون الأصنام والأوثان. وتفسيرُ الأمر بالعبادة بأنّه الأمرُ بإقامة التوحيد هو التفسيرُ الذي لا محيدَ عنه هنا؛ لأنَّ ثمود لم يكونوا أصلًا مؤمنينَ باللّه حتى يُؤمروا بتفاصيل العبادة والشريعة دونَ تحقيق الأصلِ وهو الإيمان بالتوحيد. وهذا هو السرُّ في إيثار لفظ (العبادة) على لفظ الطّاعة، التي تعني الانقياد[1] أي: الانقياد للأمرِ والنهي سواءٌ كان للأمرِ بالتوحيد أوْ غيره من فروع الشريعة وتكاليفها وفرائضها، فالأمر بالعبادة أخصُّ من الأمر بالطّاعة خصوصًا مطلقًا.

### سرُّ الاكتفاء بالعبودية لله تعالى دون ذكرِ النَّهي عن الشرك:

غـايـةُ المـأمـول الخضوعُ لأوامرِ الرسول

اكتفى هنا بالأمر بالعبودية ولم يصرِّح بالنهي عن الشِّرك، من باب الاختصار والإيجاز والاكتفاء، فإنَّ ذكرَ أحدِ المتقابلين يُغني عن ذكر الآخر حالَ العلم به. وقد مضى أنَّ المقصود بالعبادة هنا التوحيدُ، فيكون الأمرُ بتحقيق التوحيد متضمّنًا النهيَ عن مقابله وهو الشّرك، وذلك من باب الإيجاز بالحذف والاكتفاء، كما في قوله سبحانه: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: 26]، أي: والشر، وقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81]، أي: والبرد.

### دلالة إسناد العبادة إليهم وتعليقها بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

خـيرُ السّلـوك تـخـصـيـصُ العبادة بمِلكِ الملوك

أسندَ فعلَ العبادة إليهم؛ لأنهم المأمورونَ بتوجيه العبادة إليه تعالى، وفي كون المسندِ إليه ضميرَ الجمع إشارةٌ إلى توافُقِهم على الشّرك وأوهامه، وجعل في الآية متعلّقَ العبادة اسمَ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يُعبّر باسم (الرب)؛ لأنَّهم كانوا يدركونَ أنَّ لهم ربًا خالقًا، لكنَّهم كانوا يُشركون في العبادةِ غيره، فصرّح باسمِه العلَم للدلالة على مَن هو الأحقُّ بأنْ تتوجّه العبادة إليه دون مَن سواه من الآلهة المزعومة.

(1) الراغب، المفردات: (طوع).

**دلالة (الفاء وإذا) في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾:**

عبادةُ ربِّ العالمين كلمةٌ سواءٌ للنّاس أجمعين

(الفاء) هنا للسببيّة، مرتِّبةٌ ما بعدَها على ما قبلها مع الدلالة على السُّرعة والفوريَّة وعدمِ الإمهال، على معنى: أنّهم صاروا بمجرَّد أنْ دعاهم صالحٌ عليه السلام إلى عبادة الله تعالى؛ فريقينِ مُختصمينِ مبادرينِ إلى هذا الاختصام، دونَ تريُّث أوْ تعقُّل من المخالفينَ الجاحدينَ، وكان الأصلُ أن يتّفقوا على قبولِ ما دعاهم إليه نبيُّهم عليه السلام. و(إذا) هي الفجائيّةُ الداخلةُ على الجملة الاسميَّة للدلالة على السُّرعة والفجأة، وهما معًا يُثيران العجبَ في النفس بتعكيسِ الأمور وقلبِها، حيثُ بادروا "إلى الافتراق بما يدعو إلى الاجتماع"[1]، فالإتيانُ بحرف المفاجأة كنايةٌ عن كون انقسامِهم غيرَ مَرضي، فكأنَّه غيرُ مترقّبٍ[2] ولا متوقَّعٍ؛ لأنَّ ما أمرهم به صالحٌ عليه السلام من توحيد الله وعبادته، أمرٌ لا يفترقُ العقلاءُ حوله، بل يتفقونَ عليه ويمتثلونَ له.

**دلالة التعبير بالضمير ﴿هُمْ﴾ والجملة الاسمية:**

التشخيصُ والدّوامُ مُؤكِّدٌ للحال والمقام

الضمير في ﴿هُمْ﴾ يعود إلى ﴿ثَمُودَ﴾ باعتبار القوم أو القبيلة، ولذا جاء الضمير جمعًا، وفائدةُ التعريف بالضّمير الدلالةُ على قومٍ معيّنين ومعروفينَ بذواتهم وأحوالهم وصفاتهم، واختارَ الجملةَ الاسميّة ﴿هُمْ فَرِيقَانِ﴾ للدّلالة على ثبوتِ الانقسام بينهم، ودوامِ الافتراق بينَ فريق الإيمان بالله تعالى وفريق الكفر والشِّرك به.

**دلالةُ التعبير بـ(الفريق) دون (الطائفة) في: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾:**

من سنة الله في خلقِه اختصامُ المحِقّين والمبطلين

التعبير بـ(الفريق) أدلُّ على بُعد الشُّقَّة، والمفارقةِ الكاملة، وتمام الانفصالِ والمجانبة، فالفِرْقُ: القطعةُ المنفصلةُ، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعةِ المتفرّدة من النّاس، والفَريقُ: الجماعةُ المتفرّقةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 174.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 278.

عن آخرين[1]، والمعنى: أنَّ ثمودَ تفرّقتْ بعد دعوة صالحٍ ﷺ إلى فرقتينِ أوْ جماعتين من الناس، قد استقلّت كلٌّ منهما برأيٍ حول دعوتِه تَرَتَّبَ عليه أنْ صارَ فريقٌ من المؤمنين، والفريقُ الآخر كافرونَ وهم الأكثرون، ولأنَّ الكفر والإيمانَ لا يلتقيانِ ولا يجتمعان، فقد كان التعبيرُ عنهما بالفريقين؛ أي: المنفصلينِ بحيث لا يجمعُهما جامع. ويدلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: 30] وقوله: ﴿۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: 24] وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7] فالملحوظُ في استخدام كلمة (فريق) في هذه الآيات أنَّه مَرْعيٌّ فيها المفارقةُ التامّة وعدمُ الالتقاء بين الفريقينِ المتقابلين.

وبناءً على هذا فإنَّ التعبير بالفريقينِ أنسبُ من التعبير بـ(الطائفتين)؛ لأنَّ الطائفة هي الجماعةُ من الناس تتفقُ فيما بينها، وإنْ قابلتها طائفةٌ أخرى أي: جماعة أخرى، فكانت طائفتان، وكونُهما طائفتين لا يعبّر عن تمام الانفصال كما يعبّر عنه لفظ (الفريقين)، فقد تختلفُ طائفتانِ أوْ حتى تقتَتِلا، ومع هذا لا يُخرجُهما ذلك عن الاجتماع في الوصف العامِّ الجامع بينهما؛ بدليل قوله سبحانه: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122] حيث قال: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: 122] فجعلَ الطائفتينَ منهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]، ومعَ وقوع الاقتتال بينهما لم يُخرجهما ذلك عن أن يكونا من المؤمنينَ.

**دلالة التثنية في قوله: ﴿فَرِيقَانِ﴾:**

الفريقانِ هم المؤمنون والكافرون، الوارد بعضُ تفصيلِ شأنهما في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن

فريق في الجنّة وفريق في السعير

(1) الراغب، المفردات: (فرق).

قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: 75 - 76] وسياقُ هاتين الآيتين وأسلوبُ الحوار وضمائرُ الخطاب والتكلُّم الجمْعية الظاهرة في سجال الفريقين؛ كلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ المؤمنين كانوا أيضا جمعًا، خلافًا لمَن قال بأنَّ الفريقَ المؤمن هو صالحٌ عليه السلام وحدَه، فالسّياقُ دالٌّ على أنَّ "الجمعية حاصلةٌ في كلِّ فريق"[1].

### دلالةُ الجمع في قوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾:

أهل الإيمان فريقٌ مقارعٌ لأهل الطغيان

قيل هنا ﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ ولم يقل: (يختصمان) بالنظر إلى تثنية ﴿فَرِيقَانِ﴾؛ قصدًا إلى اعتبار مجموعِ أفرادِ كلِّ فريقٍ من الفريقين، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: 9] ولم يقل: (اقتتلا)، فالتعبيرُ عنهم بالفريقين دلالةٌ على أنهم انقسموا إلى قسمين فقط، لكنَّ الاختصام بين الفريقين أخذَ نصيبه من كلِّ فردٍ من الفريقين، ومن ثمَّ كان الجمع مُعبرًا عن حالة الاختصامِ الجماعيَّة التي شملت الأفرادَ جميعًا. كما أنَّ الاقتتال بينَ الطائفتين وقعَ من أفرادهما جميعًا، ومن مسوِّغات الجمع أيضًا دونَ التثنية: رعايةُ الفواصل[2].

### نكتة التعبير بقوله: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ مادّةً وصيغة:

لا يتوقّف الاختصام إلى يوم القيام

أصل المُخاصَمَة: أن يتعلّق كلّ واحدٍ بخُصْمِ الآخر، أي: جانبه وناحيته، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمَيْن يأخذُ في ناحيةٍ وجانبٍ، غيرَ الذي أخذَ به صاحبه[3]. فدلَّت المادّةُ على شدَّة المنازعة وقوَّة الخصومة بين الفريقين. وأمّا عن الصيغة وهي (الافتعال) مع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 248.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).

المضارعة، فإنها دالّةٌ على تكرُّر المخاصمة وتَجَدُّدِها، وطولِ أمدها، والمبالغةِ فيها حتى صارتْ عنوانًا لهم، وذلك بكثرةِ المنازعة والمجادلة بين الفريقين؛ الفريقِ المؤمن والفريقِ الكافر.

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### الإرسال والبعث:

كلُّ إرسالٍ بعثٌ وليس كلُّ بعثٍ إرسالًا

في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ عبَّر بالإرسال دونَ البعث في قوله: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾؛ لأنه ﷺ كان رسولًا محمَّلًا برسالة إلهيّةٍ إلى قومه ثمود، وهذا ما سوَّغ التعبيرَ بالإرسال وإيثارَه على التعبير بالبعث، فإنك تقولُ: أرسلتُ فلانًا إلى فلان، إذا حمَّلْتَه برسالةٍ إليه، أوْ حمَّلْتَه خبرًا، وما أشبهَ ذلك. وأمّا التعبير بـ(البعث) فإنه لا يقتضي ذلك بالضرورة، فقد "يبعثُ الرجل إلى الآخر لحاجةٍ تخصُّه دونك، ودونَ المبعوث إليه؛ كالصبيِّ تبعثه إلى المكتب فتقول: بعثته، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلا برسالةٍ وما يجري مجراها"[1] فكل إرسال بعث ولا ينعكس كليًا.

فإن قيل: فما تقول في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36] فعبَّر بالبعث دون الإرسال؟ فالجواب: أنَّ القيد المذكور في الموضعين ﴿رُسُلًا﴾ [يونس: 74] – ﴿رَّسُولًا﴾ [النحل: 36] يغني عن التقييد بالنص على الإرسال، ويضيفُ إليه ما يبعثه في النفس معنى الفعل (بعث) من معنى: الإثارة والتوجيه[2]. وقد يبدو من تتبع مفردة (بعث) مع الرسُل في الكتاب العزيز، أنها تستعملُ حين يريدُ القرآن التعبيرَ عن تكليف رسولٍ برسالة، بعد فترة متطاولةٍ من الرسول السّابق، أو الرُّسُل السّابقين، ولذلك تعضّد أحيانًا بـ (ثم) العاطفة، وهي تدلُّ على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(2) الراغب، المفردات: (بعث).

الترتيب والتراخي، وبكلمة (بعد) كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: 103] وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74] وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75] ففي ذلك إيحاء وإيماء إلى ما ذُكِر. كما توحي بذلك أيضًا مفردة البعث في استعمالها خارجَ هذا السياق إلى سياق البعث بعد الموت، فإنه يكون بعثًا من رقاد، كما يعبر عنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52] وتأمَّلها أيضًا في إخبار القرآن عن رقاد أهل الكهف في كهفهم أكثرَ من ثلاثمائة سنة، فقد عبَّر القرآن عن إيقاظهم بالبعث، كما يظهرُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: 12] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: 19].

### الفريق والطائفة:

الفِرْقُ: القطعةُ المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المتفرّدة من النّاس، والفَريقُ: الجماعة المتفرّقة عن آخرين[1]، والتعبير بالفريق يدلُّ على بُعد الشُّقَّة، والمفارقة الكاملة، وتمام الانفصال والمجانبة بين الفريقين، بحيث لا يلتقيانِ ولا يجتمعانِ، ويدلُّ لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: 30] وقوله: ﴿۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: 24] وقوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: 7] فالملحوظُ في استعمال كلمة (فريق) في هذه الآيات أنّه مَرْعيٌّ فيها المفارقة التامة وعدمُ الالتقاء بين الفريقين المتقابلين.

**الفريقانِ لا يجتمعان ولا يلتقيان، والطائفتانِ تختلفان لكنهما تجتمعانِ في وصفٍ جامع**

وأما الطائفة فهي الجماعةُ من الناس تتفقُ فيما بينها، ولا يمنعُ تقابلُ طائفتين من اجتماعهما في وصفٍ عامٍّ جامعٍ بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122] حيث

(1) الراغب، المفردات: (فرق).

قال: ﴿طَآئِفَتَانِ مِنكُمۡ﴾ [آل عمران: 122] فجعلَ الطائفتين منهم. وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9]، ومع وقوع الاقتتال بينهما لم يُخرجهما ذلك عن أن يكونا من المؤمنين. ولأنَّ سياق آية النّمل لا يقضي بأيِّ اتفاق بين الفريقين فريق الكفر وفريق الإيمان، فكان من الملائم التعبيرُ بكلمة ﴿فَرِيقَانِ﴾ لا (طائفتان)؛ وذلك أنَّ ثمود تفرّقت بعدَ دعوة صالح عليه السلام إلى فرقتين أوْ جماعتين من الناس قد استقلَّ كلٌّ منهما برأيٍ حول دعوته، ترتَّب عليه أنْ صار فريقٌ مؤمن، وفريق آخرُ كافر.

### الخصام والجدال:

الجِدال: المفاوضة والمقاومة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمتُ فتله[1]، وأصل المُخاصَمَة: أن يتعلّق كلُّ واحد بخُصْم الآخر، أي: جانبه وناحيته، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمَيْن يأخذُ في ناحيةٍ وجانبٍ، غيرِ الذي أخذَ به صاحبُه[2]. فدلَّت المادة على شدة المنازعة وقوّة الخصومة. وعن الفرق بينهما جاء في كتاب الكبائر للذهبي - منسوبًا للغزالي - أنَّ الجِدال، عبارةٌ عَن أَمرٍ يتَعَلَّق بِإِظْهار المذاهب وتقريرها والاحتجاج لها، وأمّا الخُصومَة فلجاجٌ في الكَلام ليستوفي بِهِ مَقْصودًا من مال أَو غَيره[3].

**الخصومة قضية بين محقّ ومبطِل فيها لَجاجٌ ولَدَدٌ، والجدال احتجاج واستدلال بحقٍّ أوْ باطل**

وبتتبع المادتين في القرآن الكريم يظهرُ لنا أنّه يذكر الخصامَ في قضيةٍ متنازَعٍ فيها بينَ محقٍّ ومُبطِل: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤﴾ [البقرة: 204]، وقال سبحانه: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الحج: 19]، وقال: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥﴾ [النساء: 105].

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).
(3) الذهبي، الكبائر، ص: 221.

وأما الجدالُ، فنوعان؛ **الأوّل:** أنْ يكون بحقٍّ وهو ممدوحٌ ومطلوب؛ وفيه قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125].

**والثاني:** أنْ يكون بباطلٍ وهو مذموم ومنهيٌّ عنه؛ وفيه قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: 5]، فالفرق بينهما أن الخصومةَ قضيّةٌ يقع فيها الجدالُ بالحقِّ والباطل بينَ طرفين متنازعينِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»